

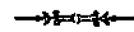


دراسات في الفن :

خمسة أيام طاهرة

بين الفن والاسكندرية

للأستاذ عزيز أحمد فهمي



ليتنى ما جئت القاهرة . بل أحمد الله لأنى جئت . وأستفرك
اللمم إذ تحيت غير ما كان من إرادتك . فقد رأيت القاهرة لوتنى
ونسيت أنها علمتى ، وقد حننت إلى الإسكندرية التى دلتنى ونسيت
أنها خلبتى . وهانذا أبيتش فى القاهرة راضياً ، وهانت ذابارحن
تاذن لنا أن نجتمع بين يديك يوماً أو أياماً كلما شئت فلا نجرمى
من الإسكندرية يارب كما يرمتها لأستاذى أحمد الشاب

يارب !

صحية الإسكندرية ! ولست أدري إذا كنت أحبها لأنها بلدي ،
أو أنى أحبها لأنها الإسكندرية . ولكنى أشعر وأؤمن بأنها أقرب
إليك ...

وشتان ما بينها وبين القاهرة .



عند ما يزيد أهل الإسكندرية أن يسبوا واحداً منهم أو من
غيرهم يعبرونه بأنه « صايح » وهو عندهم من لا يعمل عملاً شريفاً
ياكل منته

وعند ما يريد أهل القاهرة أن يمدحوا واحداً منهم أو من
غيرهم ويمظموه ، يصفونه بأنه « وجيه » ويتممون عليه برتبة
« البيكوية » من عندهم . والوجيه فى القاهرة هو من لا يعمل

عملاً مطلقاً وبأكل ويشرب من حيث يعلم الله ، و « البيك » فيها
هو هذا الوجيه نفسه ، أو ذلك الموظف فى الحكومة الذى ينفق
فى الخلاعة مرتبه وزيادة تأتبه من حيث يعلم الله
وأهل الإسكندرية لا يصفون إنساناً بأنه « صايح » ويمدولون
بهذا الوصف عن الحق إلا إذا تهاجوا ، وفى التهاجى عداوة ،
والعداوة نكد ، والتكبد ضرر ، فالمدول عن الحق فى الإسكندرية
ضرر فيه شر

وأهل القاهرة قد يصدقون حين يصفون إنساناً بأنه « وجيه
أو بيك » ، ولكنهم غالباً ما يصفون بهذين الوصفين أناساً ليسوا
أهلاً لها فيمدولون بذلك عن الحق ، ويصيبهم من هذا رضاه
موصوفهم ، وعند ما يرضى الإنسان بمجود على الذى أراضاه ووصفه
بغير الحق ، فالمدول عن الحق فى القاهرة نفع فيه خير

والذى يتجول فى أحياء الاسكندرية لا فى القاهرة المسطافة
التمتكة عند الشاطىء ، لا يفتأ يسمع كلمة « صايح » تُردد
مع خطاه . فالخلاف على الرزق فى الاسكندرية كثير بحكم أنها بلد
صيد وبيع وشراء وكفاح ، ولكن هذا الخلاف صريح مكشوف
لأنه نما وترعرع مع الأجيال ، والخلاف لا يمكن أن ينمو وأن
يتضخم وأن يظل مع نموه وتضخمه مكتوماً مستوراً ، فإذا انكشف
لم يكن غير ممركة ، والناس لا يستطيعون أن يماركوا ليلاً
ونهاراً ، فهم يمدلون عن المراك أحياناً إلى السب والتعير ،
فإذا كثر سبهم بوصف من الأوصاف ، كان ذلك دليلاً على أن
هذا الوصف هو أبلغ السب عندهم ، وأبلغ السب يكون بنت
الشتوم بأقبح النعوت فى رأى الجمهور وأكره ما يكرهون ،
« فالصياعة » إذن هى أكره ما يكره أهل الاسكندرية وضدها

هو أحب ما يحبونه ، وهو أن يكون الإنسان عاملاً
والمعمل فى الاسكندرية بطولته . لأن الناس محتاجون إليه فهم

ومع هذا المنف في طلب الحق فإن في أهل الإسكندرية عيباً جيباً هو أنهم يلبتون لكل ما يجيء من القاهرة سواء أكان فناً أم غير فن ، لا يفتحون عيونهم عليه ، ولا يحاولون التفرس فيه وانتقاده ، لا لشيء إلا أنه من العاصمة وأنهم لا يظنون بالعاصمة إلا خيراً ، فلا يمكن أن يتصوروها أقل منهم فراسة وصدق نظراً وإلا فلماذا كانت القاهرة العاصمة ؟ ليس من شك في أن الله جزى القاهرة ستراً بستر ، إذ خيل لأهل الإسكندرية أنها ما استحققت أن تكون العاصمة إلا لأنها جديرة بأن تكونها.. ولولا هذه المقيدة لرحفت الإسكندرية على القاهرة...

صحيح ! هذا هو إحساس الإسكندرية وتفكيرها ، فهذه الثقة التمامية بالقاهرة هي وحدها التي تروج بضائنها في الإسكندرية ومنها الفن . فإن لم يكن هذا فكيف ذاق سيد درويش الويل في الإسكندرية حتى اعترفت به ، وكيف هلت الإسكندرية وكبرت للأستاذ عبد اللطيف البنا عند ما استجلبه لها متعهدو الحفلات من القاهرة ؟ ... القاهرة العاصمة !

والفن عند أهل الإسكندرية قد يسرع إلى أن يكون حرفة لأنه موهبة ، والمواهب عند الماملين رأس مال . ولا يمكن أن يحترف الفن في الإسكندرية إلا الفنان الصادق ، ومتى ظهر صدقه في فنه وتمكنه منه ، أقبل عليه الناس وشجعوه ، ولكن إلى أن يظهر هذا الصدق ، ويجوز رضاه أهل الإسكندرية ، ثم يكون له بعد ذلك تمصيم البلدى بذوق فنان الإسكندرية الأمرين من تقدم القاسى المريح الذى لا يمكن التذلل عليه إلا بعزم من فولاذ ، وأكثر الناس تعرضاً لهذا النقد وهذا التهيم هم أصحاب الفنون الجميلة ، التى لا يأكلها الناس ولا يشربونها ، فإذا لم تكن فنونهم إلهاماً من الله يهبط على الجمهور من خلال أرواحهم ، فإن كل ما فيه من صنعة بمرض للنقد ، والصنعة ينفسح المجال في نقدها للمالين والجاهلين ، ما دام الأمر في النقد راجعاً إلى المنطق والحجج والبراهين والكلام ، وما دام الأمر في هذا كله راجعاً إلى وجهات النظر الفردية ... على العكس من إلهام الله وهو الحق الذى لا مسراء فيه . والفن لله هو باعث الحق في الحس ، والناس إذا أحسوا الحق لم ينكروه إلا كما ينكر المحروق شئ النار .

يقظون ، عيونهم مفتحة ، متصارعون عليه في لهفة واستبارة وإجادة ، فإنه إذا لم يكن العامل قوياً خرف الميدان . وهذه البطولة لها قيود كان لا بد منها لأمان المجتمع ، فإنها لو تحررت يسي إليها كل إنسان بطريقته هو فاستباح بمض الناس الحرام ، وأكلوا جهود غيرهم . وكل مجتمع تكونه الطبيعة يصنع قوانينه وقيوده بنفسه لأنها من أسباب حياته ، ويحرص كل الحرص على صيانتها ، ويشور كل الثورة على من يهيم بخدشها . وقيود البطولة في الإسكندرية هي القوة الصريحة في العمل الجد .

فإذا انحدرنا إلى القاهرة سمعنا رتبة « البيك » ، والوصف بالوجهة يتم بهما على كل من هب ودب حتى نحن . ومعنى هذا أن أهل القاهرة جميعاً يجيبون أن يكونوا « بكوات » ووجهاء هكذا ويأكلون ويشربون من حيث يعلم الله ولا يعلم الناس . وهم في هذا كما يكره أهل الإسكندرية أن يكون الواحد منهم هكذا وهذه حال تستلزم أن تتزع لها من الطبيعة قوانين تصونها ، كما أنها تستلزم أن يكافح الجوع من أجلها ، وأن يقاوم الخارج عليها الذى يهيم بخدشها ، والقانون الذى تلزمه الطبيعة في هذه الحال هو قانون « السترة » ما دام الناس لا يريدون أن يعلم غير الله من أين يأكلون ويشربون . و« السترة » ، و« التستر » ، و« الستائر » جميعاً تحق وراءها ما لا يعلمه أيضاً إلا الله . وقد يعلم الناس منه الكذب والنس .

وأهل القاهرة يسترون هذا التلوث الخلقى لأنهم يسترون كل شئ ، حتى أنفسهم يسترونها عن عيونهم .

فالكذب إذا حدث في الإسكندرية حاربه أهلها ، وإذا كان في القاهرة حاباه أهلها . وهكذا يسرى الكذب في القاهرة حتى يتغلغل في حياتها إلى أن يركب الفن ... الفن المطية من الله . إذا ادعاه في الإسكندرية مدح قتلته الإسكندرية ، فإذا ادعاه في القاهرة مدح سترته القاهرة

وقد يصبر أهل الإسكندرية على مدح في غير الفن ، ولكن هذا الذى يتلف عليهم الوقت الذى يطلبون فيه متمهم الروحية التى يشترونها بدمائهم ويكدحون طول النهار لها ، هذا المدعى يضربه أهل الإسكندرية ضرباً بالأيدى والأرجل وبالكرامى وبالزجاجات الفارغة وهم يصيحون : « هاتوا فلوسنا ! »

ما هدأت أو تارت . والرسم فيها هو هذه الصور التي تمرض البحر وظيره وسمكه ، والصيد ومراكبه ورجاله ، وهي التي نرى فيها من نشاط الإسكندرية وتوثها ما يميزها من غيرها ...

وفن الإسكندرية فيه من روح أوروبا أنقاها لا البراق الباطل منها ، وذلك لاختلاط المصريين فيها بالأجانب اختلاطاً لا يشبه اختلاطهم بهم في القاهرة ، فالأجانب في القاهرة يكادون يعيشون في أحياء خاصة ، فيها بيوتهم ومتاجرهم وملاهيهم ، أما في الإسكندرية فهم منتشون في أحيائها جميعاً يتخللون الوطنيين ، ويمشرونهم كأنهم منهم ، وقد لا يشعر الأجنبي في الإسكندرية بالقرية ، كما أن الوطني لا يشعر فيها بقرية الأجنبي ، وهذا راجع إلى أن الإسكندرية تصبغ سكانها جميعاً بصفتها ، وأنها تقدم جميعاً لنوع واحد من الحياة يتعاون فيه سكانها . وقد يجيب القارىء إذا قلت له إنى سمعت رومياً يلحن رومياً آخر ويلحن الباخرة التي قذفت به في بر مصر ، وهذا لا يمكن أن يصدر إلا من وطني يفار على بلده ولا يريد أن ينهال عليها إلا من هو جدير بالحياة فيها ، ولا يجانب في هذا من كان من وطنه الأول أو من كان من أهل البلاد نفسها . والأجانب في الإسكندرية كثيرون ، وهم كما يملطونها أرواحهم يملطونها تفكيرهم ، وإحساسهم ، فيأخذ عنهم الوطنيين ألواناً من أساليب العرض الفني ، كما يتعلمون منهم أشياء رقت بهم على المصريين وجودت فنونهم

هذا هو فن الإسكندرية

وأما فن القاهرة فأستره إرضاء للقاهرة .

عزيز أحمد نسيمي

ومع أن الفن اللهم هذا قد يسرع إلى أن يكون حرفة في الإسكندرية لإسراع الناس فيها إلى العمل والإنتاج بحكم الحاجة ، فإنه لم يكن إلى اليوم فيها تجارة مثلما أصبح في القاهرة على أيدي إخواننا السوريين الذين تأصلت فيهم طبيعة التجارة منذ كان أجدادهم الفينيقيون يحملون لواءها في العالم القديم ووجدوا في القاهرة المنتشرة مدينتهم ... فأهل الإسكندرية صيادون يبيعون ما يجود الله به عليهم من سمك أو فن ، ولكنهم لا يستطيعون تليفيق السمك ولا يستطيعون تليفيق الفن ، كما أنهم لا يعرفون الإعلان عما عندهم إلا بمرضه ، كما أنهم لا يوتقون مواضعه ولا ينظمونه ، فالطبيعة هي التي توقته لهم وتنوعه ، فأيام الصفاء لها سمك ولها فن ، وأيام النوء لها سمك آخر ولها فن آخر . وما أكثر تقلبات البحر التي يجود بالسمك ! وما أكثر تقلبات الحياة التي تجود بالفن ! وما أكثر تلون الصروف التي تجود بما بين السمك والفن ...

أما القاهرة فكان من نتائج الاتجار بالفن فيها أن أصبح له أسواق منها شارع عماد الدين ، كما أن للخردوات فيها أسواقاً منها شارع الموسكى . والأسواق يتسلل إليها السمسرة ، ومتى دخل السمسرة دخل الزيف والبهرج اللذان لا صلة لهما بالفن وإن كانت لهما صلة بما هو دونه

هذا هو ما يختص بظهور الفن في كل من الإسكندرية والقاهرة ... فما هي طبيعة فن الإسكندرية ، وما هي طبيعة فن القاهرة ؟

طبع الفن في الإسكندرية يشبه طبيعتها ، وطبع الفن في القاهرة يشبه طبيعتها ، وأصدق الفن في الإسكندرية ما كان صدقاً ، وأصدق الفن في القاهرة ما كان غشاً وكذباً !

الإسكندرية تعاشر البحر في كنف الصحراء ... وكل منهما مكشوف . وفيها منهما . والقاهرة يحتمسها جبل أغبر ليته ما كان فانطلقت صحراوية خالصة ، وانكشف عنها هذا الرجم الثقيل الجاثم على صدرها وعينها ... فربما كانت تسمع وترى وتعي ...

لقد طبع البحر الإسكندرية وأهلها وفنها . فالأدب فيها قد عنيف قاس يشبه أن يكون إعصاراً ، فإذا رق فهو إخلاص البحر واستسلامه على جبروته وعظمته ، وللموسيقى فيها صفاء وصدق

أذهب مقالات
الاستبصار للشام شبلبي
وكتابه
الاستبصار الصحيح

من مكتبة الرشد ، شارع المنكح لوليد
رقم المكتبات المصرية الشهيرة